﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٢﴾ [الرّعد: 22]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مواصلة التّحفيز لصالح الأعمال، وكونها تدوم بالهمّة والمصابرة

لمّا كان الاستمرار على التّخلّق بعظيم الصّفات، وكريم الخلال في الآيات السّابقة، وكان للمداومة عليها ثقلٌ قد تضعف معه العزائمُ، وكان هذا كلّه يفتقر - بلا ريب - إلى الهِمَم العالية، والصّبرِ الجليل الجميل، جاءت هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾ لبيان ذلك.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱبۡتِغَآءَ﴾: الابتغاء (افتعال) مِنَ البغي، وقد غلب اختصاص هذه الكلمة للدّلالة على الاجتهاد في الطّلب، سواءٌ كان الطّلب محمودًا أو مذمومًا، وهو هنا مِنَ الابتغاء المحمود، أي: طلبًا حثيثًا في سبيل رضا ربّهم، وإخلاصًا له[1].

2) ﴿وَيَدۡرَءُونَ﴾: الدّرء: "الميل إلى أحد الجانبين"[2]، وأصل (دَرَأ) دَفْعُ الشَّيْءِ[3]، ومَن يميل إلى أحد الجانبين، فإنّه يدفع عنه. تقول: قوّمتُ دَرْأَهُ، ودَرَأْتُ عنه: دفعت عن جانبه[4]. ومعنى: ﴿وَيَدۡرَءُونَ﴾ أي: يدفعون. قال تعالى: ﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي: يدفعونها بها، ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ﴾ [النّور: 8]، أي: يدفع عنها الحَدّ.

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (بغي).
(2) الرّاغب، المفردات: (درأ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (درى).
(4) الهرويّ، الغريبين في القرآن والحديث: 2/626.

3) ﴿عُقْبَى﴾: (الْعَيْنُ والقافُ والباءُ) أصْلانِ صَحيحانِ؛ أحَدُهُما: يَدُلُّ على تَأْخيرِ شَيْءٍ وإتْيانِهِ بَعْدَ غَيْرِهِ. والأصْلُ الْآخَرُ: يَدُلُّ على ارْتِفاعٍ وشِدَّةٍ وصُعوبَةٍ"[1]، وأصل العَقِبُ: مؤخَّرُ الرِّجل، ثمّ صار يُطلق على آخر كلّ شيء، وما يتبقّى منه، فيقال لآخِر الشّهر: عقبه ... ، "والعُقْبُ والعُقْبَى يختصّان بالثّواب نحو: ﴿خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾ [الكهف: 44]، وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾. والعاقِبةُ إطلاقُها يَختصّ بالثّواب نحو: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: 83]، وبالإضافة قد تُستَعمل في العقوبة نحو: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ﴾ [الرّوم: 10]، وقوله تعالى: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ﴾ [الحشر: 17]، ومعنى: ﴿عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أي: عاقبتها الحسنة"[2].

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

ثمّ تواصِل الآياتُ مدحَ أولي الألباب، بتعديد صفاتهم، فكان منها: أنّهم الصّابرون على طاعة الله وعن معاصيه؛ إخلاصًا لله وطلبًا لمرضاته، ومن مقتضيات هذا: أنّهم محافظون على صلاتهم، بكامل أركانها ومطلوباتها الظّاهرة والباطنة، ومُنفقون مِن أموالهم ما يُزكّيها فرضًا ونفلًا، سِرًّا وعلانيّةً، حسبما يكون الخير والأفضل، ويدفعون ما يقع منهم مِن زلّات وهَفَوات، بفعل حسنات تمحو أثَرَها، بالارتداع عنها وتذكير النّفس بسوء عاقبتها، إن كانت مُجرّد همٍّ لم يُتَرجَم إلى فعل، أو بالاستغفار والتّوبة منها بعد فعلها ووقوعها، أولئك الجديرون بدخول الجنّة وسكناها، ونِعمَ ما هي.

تقاطع الصّبر مع جميع الطّاعات، دليلٌ على أهميّته، وخصوصًا في الأزمات

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

دلالة عطف هذه الآية على ما قبلها:

العلاقة بين الأصل الأخلاقيّ وفرعه

في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾، الواو عاطفة

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقب).
(2) الرّاغب، المفردات: (عقب).

لجملة الصّلة، على قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾، باعتبارها فرعًا مِن فروعها، وأثرًا مِن آثارها.

دلالة إعادة ذكر الموصول ﴿وَٱلَّذِينَ﴾:

إعـادة الموصول محـقّـق لـشرف الموصوف

أُعيدَ اسْمُ المَوْصولِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾؛ تنويهًا بشأن ما في حيّزه مِن جملة الصّلة وما عطف عليها من صفات؛ لبيان أنّها بذاتها جديرةٌ بالاهتمام، وأنّها لعظمتها كافيةٌ في مدح مَنِ اتّصف بها والاهتمام به، وأيضًا: لِدَفْعِ تَوَهُّمِ أنَّ عُقْبَى الدّارِ لا تَتَحَقَّقُ لَهُم إلّا إذا جَمَعوا كُلَّ هَذِهِ الصِّفاتِ[1].

سرّ التّعبير بالصّبر وحذف متعلّقه:

العمل الجليل، يحتاج إلى الصّبر الجميل

دلّ قوله تعالى: ﴿صَبَرُواْ﴾ بعدما مضى من سرد صفات أولي الألباب، وما ألزموا أنفسَهم به من عبادات وأخلاق، على أنّه لا يقوى على المُداومة عليها، ولا يُلقّاها إلّا الّذين صبروا عليها، وصبروا عن أضدادها، وقد حُذِف متعلّق ﴿صَبَرُواْ﴾ لإفادة العموم، والمراد: صبروا على كلّ ما تكرهه النّفس مِنَ المصائب الماليّة والبدنيّة، وعمّا يخالف هوى النّفس مِن حُبّ الانتقام ممّن آذاه، ومِنَ العموم أيضًا ما يتعلّق بالتّكاليف الشّرعيّة، وما يتبعُ الالتزامَ بها من عقبات ومعوّقات.

دلالة التّعبير بالماضي ﴿صَبَرُواْ﴾:

بيان مكانة صفة الصّبر، وتمكّنها منهم

جاءت الصّلةُ بصيغة الماضي في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾ لما يلي:

أوّلًا: التّنويه بشأن هذه الصّفة؛ لإظهار دورها في المحافظة على بقية الصّفات المذكورة؛ إذ جميعُها مُفتقِر إلى الصّبر؛ لضمان دوامِ الاستمرار عليها، فصِفةُ الصّبر متقدّمة في الوجود على بقيّة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/126.

الصّفات السّابقة واللّاحقة، فكان مسوّغًا لاستئثارها بالتّعبير بصيغة الماضي دون سواها.

ثانيًا: أنّ ما تقدّم مِنَ الصّلات التّي جاءت بالمضارع قُصِد بها الاستصحابُ والتّلَبُّس، أمّا هذه ﴿صَبَرُواْ﴾ فقد قُصِدَ بها تقدّمها على ذلك؛ لأنّ حصول تلك الصّفات مترتّبٌ على حصول الصّبر فيها، وتقدّمه عليها[1].

ثالثًا: ومِنَ المسوّغات - أيضًا - إفادةُ تحقُّقِها في المُخبَر عنهم، وتمكُّنِها مِن أنفسهم[2].

رابعًا: وكذلك لمّا كان اسمُ الموصول هنا في معنى اسم الشّرط، فقد ساغ التّعبير في الصّلة بالماضي، مخالفًا ما سبقه مِنَ التّعبير بالمضارع، "لأنّ الماضي كالمضارع في اسم الشّرط، فكذلك فيما أشبهه"[3].

سرّ التّعبير بالابتغاء دون ﴿وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾:

أولــو الألــبــاب، وطَرقُ الأبواب

الابتغاءُ هو الاجتهادُ في الطّلب، والنّصب فيه إمّا على الحال، أي: طالبين وجهَ الله ورضاه، أو على المفعول لأجله، أي: أنّهم صبروا لأجل أن يجتهدوا في طلب رضى ربّهم، فيكون الابتغاء هنا برزخًا بين صبرهم وبلوغهم رضا ربّهم، من حيث إنّ هذا الاجتهاد في الطّلب هو المَدخل الّذي سيحقّق لهم رضا ربّهم، لما فيه مِن طَرْق الأبواب، الّذي يتبعه إفاضةُ الوَهّاب عليهم بالرّضا والقَبول والتّوفيق. وقد قيل[4]:

أَخْلِقْ بِذي الصَّبْرِ أَنْ يَحْظَى بِحاجَتِهِ *** وَمُدْمِنِ القَرْعِ لِلْأَبْوابِ أَنْ يَلِجا

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/141.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/17، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/128.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/134.
(4) البيت لمحمد بن بشير البصري الخارجيّ، ينظر: ابن قتيبة الدينوري، الشعر والشعراء: 2/867.

بلاغة التّعبير بقوله: ﴿وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾:

بيان الاحتراس في الآية الكريمة، بين المعنى والغرض

ليس التّعبير بقوله: ﴿وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾، من قبيل الصّفة الإلهيَّة، وإنّما المقصود به: "الْجِهَةُ الَّتي تُقْصَدُ عِنْدَهُ تَعالَى بِالْحَسَناتِ لِتَقَعَ عَلَيْها الْمَثوبَةُ، كَما تَقولُ: خَرَجَ زَيْدٌ لِوَجْهِ كَذا"[1]، وليس من جهةٍ يكافئها الله بالحسنات إلّا الجهةُ المرادُ بها وجهُ الله بالإخلاص له دون سواه، وبهذا انتفت سائرُ الجهات التي تُنافي الإخلاصَ لله في صبرهم، كالرّياء ونحوه.

فكانت هذه الجملة ﴿ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾ احتراسًا دفعَ به توهّم أن يكون صبرُهم لأيّ سبب آخر غيرِ طلب ﴿وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾؛ لأنّ الإنسان قد يُقدم على الصّبر لأغراض أُخَر:

أحدها: أن يصبر ليقال: ما أكملَ صبرَه، وأشدَّ قوّتَه على النّوازل.

ثانيها: أن يصبر لئلّا يُعابَ بسبب الجَزَع.

ثالثها: أن يصبر لئلّا تحصُل شماتةُ الأعداء.

رابعها: أن يصبر لعلمه أن لا فائدة للجَزَع.

فكلّ هذه الوجوه لم تكن داخلة في الصّبر لابتغاء وجه الله[2].

سر التّعبير بالرّبوبيّة دون الألوهيّة:

النّعم من آثار الرّبوبية وتجليّاتها

في قوله تعالى: ﴿ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾، عبّر باسم الرّبّ المُشعِر بالإنعام، وأضاف ضميرهم إليه، وآثره في التّعبير هنا دون الاسم الجليل (الله) المُشعر بالمهابة؛ لما أنّ المقام مقامُ إنعامٍ ومَنٍّ من ربّهم عليهم؛ إذ وفّقهم للتّخلّق بأعظم الأخلاق، وأخصّ الصّفات، وأعانهم عليها بأن مَكّن في نفوسهم الصّبرَ، لدوام المحافظة عليها.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/380.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/41.

دلالة العطف:

العلاقة التّكاملية الوثيقة بين الصّبر والصّلاة

دلّ عطفُ قولِه: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ على قوله: ﴿صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾ على مدى التّلازم، ووثاقة العلاقة بينَ الصّبر والصّلاة، وهو المُعبّر عنه في مواضع أُخرى في القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥﴾ [البقرة: 45]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾ [البقرة: 153]، فالمحافظة على الصّلاة تحتاج إلى الصّبر، وهو كذلك يحتاج إلى محفِّز الصّلاة، ومِن ثَمّ كان النّبيّ ﷺ يَهْرَع إليها عندما تشتدّ عليه الأمور، فعن حذَيْفَةَ ﷺ، قال: «كانَ النَّبي ﷺ إذا حَزَبَهُ أمْرٌ، صَلَّى»[1].

سرُّ ترتيب إقامة الصّلاة بعد الصّبر:

من أسرار التّرتيب بين إقامة الصّلاة وسابقها ولاحقها

رَتَّب في الذّكر الإخبارَ عن إقامتهم الصّلاة على الإخبار بصبرهم، وهو من عطف الخاصّ على العامّ؛ لأنّ إقامتهم الصّلاة هو أثَرٌ لصبرهم على طاعة الله، ثمّ قدّم في التّرتيب أيضًا الصّلاة على الزّكاة وما تلاها، إثْرَ الإخبار عن صبرهم؛ لما للصّلاة مِن حَقّ التّقديم والأسبقيّة المُطلقة على سائر العبادات، وذلك أنّ الصّلاة أهمّ أركان الإسلام بعدَ الشّهادتين، والمحافظةُ عليها خيرٌ معين على المحافظة على ما بعدَها، كالزّكاة وغيرها، وخيرٌ معين أيضًا على البُعد عمّا يُغْضِب الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت: 45].

سرّ التّعبير بـ (إقامة الصّلاة)، دون أدائها:

لا يكفي في أداء الصّلاة إبراء الذّمة؛ بل إعلاء الهمّة

يحرص القرآن الكريم على الأمر بإقامة الصّلاة بصيغة الأداء؛ وذلك لأنّ المطلوبَ صلاةٌ تقوم على مراعاة الأركان الظّاهرة المعروفة، وكذلك الأركان الباطنة مِنَ الخشوع والخضوع الّذين

(1) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، برقم: (1319).

يليقان بمقام المثول بين يدي ربّ العباد، وهذا كلّه لا يكفي فيه مجرّدُ الأمر بالأداء؛ من حيث إنّ المطلوب للصّلاة أداءٌ خاصّ تعلو به الهِمّة، لا أداءٌ تبرأُ به الذّمّة. وممّا يؤكّد ذلك أنّ الله تعالى لم يمدح إلّا المقيمين للصّلاة، في قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ إلى قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾ [النساء: 162]، ولم يَرِد ذِكْر المُصلّي إلّا في حقّ المنافقين، قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾ [الماعون: 4 - 5]، وعلى هذا فالمصلّون كُثُر، والمُقيمون للصّلاة قليل.

دلالةُ التّعبير بالماضي في ﴿وَأَقَامُوا﴾:

دلالة التّعبير بالماضي، في قوله: ﴿وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ﴾ دونَ المضارع، وهو الصّيغة السّائدة في الصّلاة الماضية؛ للتّنويه بشأن الصّلاة، وتمكُّنها في نفوسهم، وللدّلالة أيضًا على تحقّقهم بإقامة الصّلاة، والمحافظة على أدائها بكامل حقّها ومُستَحَقّها.

مِنَ الوفاء بعهد الله، التّحقّق بإقامة الصّلاة

سرّ التّعبير عنِ الزّكاة بالإنفاق:

دلّ التّعبيرُ بالإنفاق في الآية دون النّص على الزّكاة؛ ليشملَ الزّكاةَ وسائرَ مظاهرِ الإنفاق الواجبِ منه، كالإنفاق على العيال، والمندوبِ، كالوقف وصدقة التّطوّع.

في المال حقٌّ سوى الزّكاة، يتحقّق بالإنفاق في سُبُل الخيرات

دلالة التّعبير بالماضي في ﴿وَأَنفَقُوا﴾:

دلّ التّعبير بالماضي في قوله: ﴿وَأَنفَقُوا﴾ دون المضارع، على ما دلّ عليه إيثارُ الماضي على المضارع في ﴿صَبَرُوا﴾ و﴿وَأَقَامُوا﴾، وهو التّنويه بشأن صفة الإنفاق، والدّلالة على تحقُّقها فيهم، وتمكُّنها من نفوسهم وقلوبهم.

مِنَ الوفاء بعهد الله تحقُّق الإنفاقِ في سبيل الله

دلالة الجمع بين إقامة الصّلاة والإنفاق:

للجمع بين إقامة الصّلاة والإنفاق في الآية عهدٌ قرآنيّ، يدلُّ

معهود القرآن في الجمع بين الصّلاة والإنفاق

على اشتراكهما في قَدْر الأهميّة، وإن تقدّمت الصّلاةُ في هذا، كما يدلُّ على وثاقةِ الارتباط وقوّة العلاقةِ بينَهما، وتكاملِ دورهِما في إبراز الصّورة التَّعبديَّة في الإسلام؛ فالصّلاةُ عبادةٌ روحيّةٌ بدنيّة، والإنفاق بالزّكاة وغيرِها عبادةٌ ماليَّة، وبهما تكتمل الصّورةُ، ولذا أخذ الصَّديق ﷺ من هذا الارتباط حُجَّةً ودليلًا على قتال مانعي الزّكاة، فقال: "واللّه، لأُقاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلاةِ والزَّكاةِ، فَإنَّ الزَّكاةَ حَقُّ الْمالِ"[1].

سرّ التّعبير بـ (مِنْ) التّبعيضيّة في الزّكاة:

الإنفاق المطلوبُ، يكون ببعض ما تملك لا بجميعه

دلّ التّعبير بـ (مِنْ) في قوله تعالى: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا﴾: على أنّ الإنفاق المطلوبَ إنّما يتحقّق بإخراج جُزء مِنَ المال المملوك، وليس كلّ المال، وهذا الجزءُ مُقدَّر معلومٌ في الزّكاة المفروضة، ونصيبٌ لا ينبغي أن يوقِع الضَّررَ بالمُنفِق، ولا بالمُنفَق عليهم في الإنفاق التّطوّعي، ولذا نُصّ على ألّا يتجاوزَ الثّلثَ فيما يتعلّق بالوصيّة[2]، وفي هذا دليلٌ على وسطيّة الإسلام وسماحته؛ لأنّه احترم الملكيّة الخاصّة للإنسان وحافظ على جهده وكسبه، ولم يجعله مشاعًا للكُسالى والمُتسوّلين.

دلالة الإتيان بـ (ما) دون (الّذي) في قوله: ﴿مِمَّا﴾:

تزكية المَحيز مِنَ المـال، تتحقّق بالإنفاق منه

أوثِر التّعبير بـ (ما) الموصولة، دون (الّذي) في قوله: ﴿مِمَّا﴾؛ للدّلالة على عدم تعيين نوعٍ معيّن مِنَ المال المطلوب الإنفاق منه، فيشمل ما كان مالًا عينيًّا؛ كالذّهب والفضّة والنّقود المتداولة، ويَشْمَل غيرَها مما كان مِنَ الزّروع أو الماشية أو التّجارة ونحوها.

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، برقم: (1335)، ومسلم في صحيحه، برقم: (20).

(2) لحديث سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: كان رسُولُ اللهِ ﷺ يعُودُني عام حجّةِ الوداعِ مِن وجعٍ اشتدّ بي، فقُلتُ: إنّي قد بلغ بي مِن الوجعِ، وأنا ذُو مالٍ، ولا يرِثُني إلّا ابنةٌ، أفأتصدّقُ بِثُلُثي مالي؟ قال: «لا»، فقُلتُ: بِالشّطرِ؟ فقال: «لا». ثُمّ قال: «الثُّلُثُ، والثُّلُثُ كبيرٌ، أو كثيرٌ، إنّك أن تذر ورثتك أغنياء، خيرٌ مِن أن تذرهُم عالةً يتكفّفُون النّاس». أخرجه البخاري في صحيحه، برقم: (1233).

سرّ التّعبير بالفعل ﴿رَزَقْنَٰهُمْ﴾ دون غيره:

المالُ لله والعبد أمين عليه

في التّعبير بالرّزق في الآية منسوبًا إلى الله تعالى - بضمير العظمة (نا) - على أنّه فاعلُه في قوله: ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾، تنبيهٌ للإنسان إلى أنّ ما في حَوْزته مِن مالٍ مملوكٍ له، إنّما هو مِن رزق الله إيّاه، وهو الذي وهَبَه له، وأنّه لم يَنَلْه بفرط ذكائه، ولا لعلم عندَه قد حُرِمَه الخَلْقُ كافّةً، وأنّ الله تعالى قد جعله على هذا المالِ مُستَخلَفًا، فلينفقه في محلّه، فهو عنده أمانة. وعلى هذا دأبَ القرآنُ على تذكير الإنسان، بأنّ الله هو رازقه، ومنه قولُه سبحانه: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: 31]، وقولُه: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: 64]، وغيرُها مِنَ الآيات الكثيرة في هذا السياق.

دلالة التّعبير بالماضي ﴿رَزَقْنَٰهُمْ﴾:

ما كان لك من رزق الله، حتمًا سيأتيك ولا يخطئك

دلّ التّعبير بالماضي في قوله: ﴿رَزَقْنَٰهُمْ﴾ دون المضارع، على تحقّق وصولِ كلّ رزقٍ مقدَّر إلى صاحبه؛ فهو له مضمون، وما عليه إلّا السَّعيُ والأخذُ بالأسباب في سبيل تحصيله، مع توكّلٍ صادقٍ على مُسَبِّب الأسباب، كما قال سبحانه: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات: 22].

سرُّ التّعبير بـ (نا) العظمة:

تنويع الصّيغ تنشيطٌ للسّامعين، وتنبيهٌ للغافلين

في العدول إلى التّعبير بـ (نا) العظمة دون لفظ الجلالة (الله) في قوله تعالى: ﴿رَزَقْنَٰهُمْ﴾، التفاتٌ مِنَ الغَيبة إلى التّكلم، وسببُه التّنويه بشأنهم، مِن حيث إنّهم يُقرّون بأنّ ما لديهم مِن رزق إنّما هو مِنَ الله، وفيه أيضًا تنبيهٌ للغافلين الذين يظنّون أنّهم حازوا ما حازوه مِن رزق، لا لسببٍ غيرِ ذكائهم وفطنتهم وخبرتهم، فشابهوا بذلك قارون حينَ قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: 78]، وفيه إشارةٌ إلى أنّ الإنفاق ينبغي أن يكون مِنَ الحلال المُطلق الّذي لا تشوبه شائبةٌ، حتّى يستحقَ هذه الإضافة.

دلالة ذكر ﴿مِمَّا﴾ بعد الفعل ﴿وَأَنفَقُواْ﴾:

الاهتمام بالمقدَّم، من أسباب التّقديم

في قوله تعالى: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ﴾، قُدّم الفعل على ﴿مِمَّا﴾؛ لأنَّ الغرضَ الإخبارُ عن إنفاق المنفقين ومدحهم به، ولكن لمّا كان الاهتمام بالرّزق المنفَق منه تغلُّبا على شُحّ النّفس التي جبلت على الضَّنّ به، قال: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: 3، الأنفال: 3، الحجّ: 35، القصص: 54، السّجدة: 16، الشّورى: 38]، وسِرّ ذلك أنّه حيثما تكون دائرةُ الاهتمام؛ فثَمّ التّقديم.

سرّ التّعبير بالسّرّ في قوله ﴿سِرًّا﴾ دون (خفاءً):

شرف المقصد وتحقيق الغايات، محدّد الإسرار أو الإعلان بالصّدقات

الملحوظ في تركيب الآيات التي تتكلّم عنَ الإنفاق في القرآن الكريم، وتحثُّ عليه وترشد إلى طريقته؛ أنَّها تُقابل السّرّ فيه بالعلانية: ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [البقرة: 274 ، الرّعد: 22 ، إبراهيم: 31 ، فاطر: 29]؛ وذلك لأنّ السّرّ معناه: كتمانُ الحديثِ عنِ النَّفقة في النَّفس[1]، وذلك حيث يكون هذا السّرّ أفضلَ مِن مقابله وهو العلانيَةُ، أي: الإعلان بها والتَّحَدّث عنها، والعبرة في الإسرار بالإنفاق أو الإعلان راجعٌ إلى تحقيق الغاية وشرفِ المَقْصِد، فقد يكون الإسرارُ بها أفضلَ وهو الأصل، وقد يكون الإعلانُ بها هو الأفضل، إن وجد هنالك مسوّغ مشروعٌ، ومقصدٌ شريفٌ منشود.

أمّا الخفاء، فلا يناسب هنا إلّا مِن حيثُ المعنى العامّ، وليس هو المعنى الأدقّ للتّعبير عمّا جاء في هذا السّياق، وذلك أنَّ الآياتِ الّتي استخدمت صيغة الإخفاء يظهر عليها أنّها متّجهة إلى ذات الصّدقة أو النّفقة، وليس إلى الحديث عنها، وهو معنى متحصّل من معنى الخفاء، إذ هو: ما يستر به كالغطاء[2] ومُتَحصّل أيضًا من مقابلتها بالإبداء – وهو الكشف والإعلان – في قوله تعالى:

(1) الرّاغب، المفردات: (سرر).
(2) الرّاغب، المفردات: (خفي).

﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ﴾ [البقرة: 271].

سرُّ اختيار ﴿وَعَلَانِيَةً﴾ دون ظاهرة:

في القرآن مقابَلٌ بالسّر، والظّاهر مقابَلٌ بالباطن

عادة القرآن الكريم في الحديث عن الإنفاق: مقابلة السّر بالعلانية كما مضى؛ لأنّ المراد بهما كتمانُ الحديث عنه أو إعلانُه، وأمّا الظّاهر في القرآن فهو مقابَلٌ بالباطن، وليس بالسّرّ، ومنه قوله سبحانه: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ﴾ [لقمان: 20].

بديع الطّباق:

المقابلة بين السّر والعَلَن، وأثرُها في الإيضاح والبيان

في المقابلة بينَ السّر والعَلَن في قوله تعالى: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾، طباقٌ لفظيٌّ، "والمقصودُ تعميم الأحوالِ في طلب الإنفاق، لكيلا يظنّوا أنّ الإعلانَ يَجُرّ إلى الرّياء، كما كان حال الجاهليّة، أو أنّ الإنفاق سَرًّا يُفضي إلى إخفاء الغنيّ نعمةَ الله، فيَجُرُّ إلى كُفران النّعمة، فربّما توخّى المَرءُ أحدَ الحالين، فأفضى إلى تَرْك الإنفاق في الحال الآخر، فتعَطّل نفعٌ كثيرٌ، وثوابٌ جزيل، فبيّن الله للنّاس أنّ الإنفاق برٌّ لا يُكَدّرُه ما يَحُفّ به مِنَ الأحوال"[1]، فالسّرُّ حيثُ يَحْسُن السّرّ، كما في إنفاق مَن لا يُعْرَف بالمال، إذا خشيَ التُّهمَة في الإظهار، أو مَن عُرِف به لكن لو أظهره ربّما دخلَه الرّياء والخُيلاءُ، وكما في الإعطاء بمن تمنعُه المروءةُ مِنَ الأخذ ظاهرًا، وتَحْسُن العلانيةُ إذا كان الأمرُ على خِلاف ما سبق ذكره، ولذلك قال بعضُ العلماء: "إنَّ السّرّ مخصوصٌ بالتَّطوع، وإنّ العلانيَةَ بأداء الواجب"، وقيل لبيان ذلك: إنّ السّرّ ما يؤدّيه بنفسه، والعلانيَة: ما يُؤدّيه إلى بيت المال، أو بيتِ الزّكاة في أيّامنا[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/233.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/141.

دلالة التّنكير:

الإنفاق يكون في السّر والعلن، وفي كلِّ خير

دلَّ التَّنكير في لفظي: ﴿سِرًّا﴾ و﴿وَعَلَانِيَةً﴾ على شُيوع خيريَّة الإنفاقِ في الحالتين، طالما كان القصدُ شريفًا؛ كما دلَّ على مشروعيّته في عموم الحالتين.

دلالة البَدء بالسّر:

الإنفاق في السّر هو الأصل، ما لم يكن الإعلانُ به أفضل

في قوله تعالى: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾، قُدّم السّرُّ على العلانيّة في الآية؛ للدّلالة على أنّه الأصل في الإنفاق؛ لما فيه مِن بُعْدٍ عن تهمة الرّياء والتَّصنُّع، وأنَّ الإعلان بها هو الطّارئ عندما يبدو أنّه الأفضلُ لمقصدٍ شرعيّ.

دلالة عطف ﴿وَيَدْرَءُونَ﴾:

مِن صفات أولي الألباب دَفْعُ السّيّئات بالحسنات

هذه الصّفة عُطِفت على ما سبق، عطفَ الخاصّ على العامِّ؛ تنويهًا بشأنها؛ وذلك أنّهم لا يستمرئون السّيّئة ولا يَفْرَحون بها، ولذلك فهم لا يُشْفِعونها بسواها، وإنّما يدفعونها بالحسنة، كإزاحة الهَمّ بها والعُدولِ عنها إن لم تقع، والإقلاعِ عنها، والاستغفارِ منها إن وقعت، وقد قال اللّه تعالى في ذلك: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾، [المؤمنون: 96]، وقال: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت: 34].

ومن أسرار ذكرِ هذه الصّفة بعد الصّفات السّابقة مع كونها داخلةً فيها ومتضمّنة، الدّلالةُ على أهميّتها في تكفير السّيّئات التي يقع فيها الإنسان، وهو عُرضة لهذا بمقتضى تكوينه البشريّ، وبمقتضى أحوال الحياة التي توجب على الإنسان الاحتكاكَ والالتحامَ ببني جِنسه، فيُعَرّضُه هذا للوقوع في السّيّئات واللَّمَم.

سرّ اصطفاء ﴿وَيَدْرَءُونَ﴾ دون (يدفعون):

السِّرُّ في اختيار كلمة ﴿وَيَدْرَءُونَ﴾ دون (يدفعون)؛ لشمولها كافّةَ المعاني المحتملة في معنى مدافعة الحسنة للسّيّئة وتكفيرِها،

كالعُدول عنِ السّيّئة بعد العزم عليها، والاستغفارِ منها، وأيضًا مقابلة الإساءة بالإحسان، بأن يصل مَن قَطَعَه، ويعطيَ مَن حَرَمه، ويعفوَ عمّن ظَلَمَه، وذلك فيما بينَ الأفراد، وكذلك بين الجماعات، بخلاف ما لو عُبّر بالدَّفع، فقد لا ينصرف معناه إلّا إلى هذا المعنى الأخير، وهو مقابلة الإساءة بالإحسان، وهو مفهوم قوله تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ٩٦﴾ [المؤمنون: 96]، وقوله: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤﴾ [فصلت: 34][1].

كلمة (يدرءون) مِـنَ الألـفـاظ الجامعة لكلّ معاني المُدافعة

سرّ العدول عن الماضي إلى المضارع:

عدل عنِ الماضي إلى المضارع في قوله: ﴿وَيَدۡرَءُونَ﴾؛ لإفادة تجدّد النّشاط نحو مدافعةِ كلّ ما يعرض لهم مِن سيّئات، وهو أمرٌ لا شكّ مُتكرّر، لما مضى تعليلُه مِن كونه مِن مقتضى الطّبيعة البشريّة، ولما تُلجِىء إليه ظروفُ الحياة ومعاملةُ الخَلْق، وكلّ ذلك يحتاج إلى دواءٍ لعلاج هذه الأمراض المجتمعيّة؛ فكان قوله: ﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ هو الدّواء النّاجع الجامع لعلاجها.

المـداومـة على صفة المدافعة، مـن مـقـتـضى الـطّـبـيـعـة البشريّة

بلاغة الاستعارة:

في قوله تعالى: ﴿وَيَدۡرَءُونَ﴾ استعار الدَّرء، ومعناه: الدّفع والطّرد؛ لإزالة أثرِ السّيّئة ومحوِها حتّى لكأنها لم تقع. ووسائل هذا الدّفع لتحقيق إزالة الأثر ظاهرةٌ فيما يلي[2]:

الدّرء هو الدّفع والطّرد؛ لإزالة أثـر الـسّـيّـئـة ومحوِها

أولًا: أن تُتبِع السّيّئة إذا صدرت بفعل الحسنات؛ فإنّ ذلك كطَرْد السّيّئة، قال ﷺ: «يا أبا ذَرّ، اتّق الله حيثما كنت، وأتبِعِ السّيّئةَ الحسنةَ تمحها»[3]، وخاصّة فيما بينَه وبينَ ربّه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/130.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/130.
(3) أخرجه الترمذي في سننه، برقم: (1987) وقال: حسن صحيح، والحاكم في المستدرك، برقم: (178)، وقال: صحيح على شرطهما، ووافقه الذهبي.

ثانيًا: ألّا يقابل مَن فعل معه سيّئةً بمثلها؛ بل يقابل ذلك بالإحسان، قال تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤﴾ [فصلت: 34]، وهذا يكون بين الأفراد وبين الجماعات.

ثالثًا: العدول عن فعل السّيّئة بعد العزم عليها؛ فإنَّ ذلك العدولَ حسنةٌ، قال ﷺ: «ومَن هَمّ بسيّئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة»[1].

بلاغة الطّباق:

استخدام المقابلة لتبشيع صورة السّيّئة

بينَ الحسنة والسّيّئة طباقٌ لفظيٌّ إيجابيٌّ، حيث قوبلت كلٌّ مِنَ الحسنة والسّيّئة بالأُخْرَى، وهي ضِدُّها، والغرض: هو تبشيع صورة السّيّئة في الأذهان، - بمقابلتها بالحسنة - ؛ تنفيرًا منها، وحضًّا على ضِدِّها، وهي الحسنة.

دلالة الإفراد في الحسنة والسّيّئة:

الموفون بعهد الله، لا تتكاثر سيّئاتهم

دلّ الإفرادُ دون الجمع في لفظي السّيّئة والحسنة، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هود: 114] على سرعة سعي الممدوحين في تكفير ما يصدر عنهم من مخالفة، بإتباعها بحسنةٍ تمحو أثرَها، وأنّهم لا ينتظرون حتّى تتراكمَ عليهم السّيّئاتُ؛ فيَألَفَها القلبُ، وتعتادَها النَّفسُ، فيُجَدّدون لكلّ سيّئة توبةً واستغفارًا وعملًا صالحًا، حتّى تُمْحَى ولا يكون لها أثرٌ، وقد تتبدّل بصدق التّوبة إلى حسنة، كما قال سبحانه: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ﴾ [الفرقان: 70].

دلالة موقع ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾:

عند الله جزاء الإحسان بالأحسن، ولهم الحسنى وزيادة

وهذه الجملة الخبريّة تحمل نتيجة الاتّصاف بما سبق من صفات، بأنّ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموفون بعهد الله، الموصوفون بما ذُكِر ﴿لَهُمۡ

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، برقم: (6126)، ومسلم في صحيحه، برقم: (131)، عن ابن عباس ﷺ.

عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾، فهو جزاؤهم الّذي يستحقّونه، بما سلف منهم مِن أعمال صالحة.

دلالة فصل ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ عمّا قبلها:

شبهُ كمالِ الاتّصال مُعبرًا عن بلوغ الآمال

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ استئناف مسوق لبيان جزائهم؛ فكأنَّ سائلًا سأل: بعد ذكر صفاتهم الحسنة: ما جزاؤهم؟ فجاءت الإجابة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾، وهذا المعنى لا يتأتّى بإثبات حرف العطف؛ لذلك كان الفصلُ أبلغَ.

دلالة التّعبير باسم الإشارة:

المنزلة السّامية حقّ للمتّصفين بالصّفات العالية

دلّ التّعبيرُ باسم الإشارة للبعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، على بُعْد منزلتهم في الخير بما اتّصفوا به مِن أوصاف، وعلى بُعْد منزلتهم في الجنّة، وأنّهم في مكان منها شريفٍ منيفٍ، وللإشارة إلى تميّزهم عن غيرهم مِنَ المؤمنين أكملَ تمييز.

دلالة تقديم الجارّ والمجرور على المبتدأ:

من دلالات تقديم المؤخّر إفادة القصر

أفاد تقديمُ الجارّ والمجرور ﴿لَهُمۡ﴾ على المبتدأ ﴿عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ القصرَ والحَصْرَ، على معنى: أنَّ هؤلاء وحْدَهم هم الحَقيقون بـ ﴿عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾. "أي: هي لهم، لا للمُتّصفين بأضداد صفاتهم، فهو قصرٌ إضافيٌّ"[1].

سرّ التّعبير عن الجزاء، بقوله: ﴿عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾:

دلالة كلمة (عقبى) على خير الجزاء

عَبَّر عنِ الجزاء المُعَدّ لهم في الجنّة بقوله: ﴿عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾؛ لما فيه مِنَ الدّلالة على الخير، فالعُقبى والعاقبة قدِ اشتهر استعمالُهما في آخرة الخير، وعلى هذا جرى الاستعمال القرآنيّ، ومنه قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٨٣﴾ [القصص: 83].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/130.

سرّ اختيار ﴿عُقْبَى﴾ دون العاقبة:

المقابلة هي سرّ تغليب عقبى على العاقبة

و(العُقبى) و(العاقبة) وإن كانت بمعنًى، إلّا أنّه آثَرَ ﴿عُقْبَى﴾ دون العاقبة، كما في قوله: ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأعراف: 128]؛ لمقابلته بقوله في الآية الآتية: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾.

سرّ التّعبير بلفظ ﴿ٱلدَّارِ﴾:

الرّاجح في المراد بالدّار، أنّها الجنّة؛ لأنّها سكنٌ دائمٌ وقرار

عبّر بالدّار دون غيرها؛ لأنّها تحتمل معنيين؛ فتُطلق على دار الدّنيا، ويكون المرادُ بقوله: ﴿عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ الخاتمةَ الّتي خُتِمت بها هذه الدّار، وهي عمل كلّ عاملٍ فيها؛ فمن عمل خيرًا كانت عاقبتُه خيرًا، ومَن عمل سوءًا كانت عاقبتُه بلاءً ونَكالاً، وهذا المعنى مبنيٌّ على أنّ معنى (العاقبة): خاتمةُ كلِّ أمرٍ وغايتُه، ويؤكّد هذا قولُه تعالى: ﴿لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ بإضافة العاقبة لهم، ولم يجعلها عليهم، بمعنى: أنّ هذه العاقبةَ ممّا يملكها الإنسانُ ويحرِصُ على اقتنائها إذا كانت خيرًا، ويَنفُر منها ويولّيها ظَهْرَه إذا كانت شَرًّا، ولكنّها تُحْمَل عليه حملًا، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ﴾ [البقرة: 286][1]. وتُطلق ﴿ٱلدَّارِ﴾ على الجنّة، ويكون التّعبير بها لما في لفظها من إفادة القرار؛ لأنّ ﴿ٱلدَّارِ﴾ سكنٌ وقرارٌ لا خُروجَ بعدَه، قال تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الحجر: 48]، وهذا المعنى هو الرّاجح في المراد بـ ﴿ٱلدَّارِ﴾، يُؤكّد ذلك قولُه تعالى: ﴿جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ ۖ﴾، فهي بمثابة البيان لهذه الدّار.

دلالة الإضافة في: ﴿عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾:

الجنّة هي عقبى الدّار، للصّالحين الأبرار

الإضافة في قوله: ﴿عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾، هي مِن إضافة الصّفة إلى الموصوف، وهي دالّة على تمكّن الصّفة مِن موصوفها تمكّنًا تامًّا، فالعقبى الخيرُ أو الحسنةُ، هي الوصفُ الثّابت للجنّة، فكلّها خيرٌ

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 5/104.

بلا شَرٍّ، وصَفْوٌ بلا كَدَرٍ. والدّار هي الآخِرةُ، ويمكن أن تكون دارَ الدّنيا، وعقباها على كلٍّ هي الجنّة؛ لأنّها مستَقَرُّ الصّالحين، وآخِرُ ما يَؤوبون إليه، ليبدأ فيها نعيمُهم.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

الابتغاء والطّلب:

إذا جدّ الطّلب كان ابتغاءً، وبينَ اللّفظين تقاربٌ دلاليّ شديد

في المعاجم اللُّغويَّة يُعَرّف كلٌّ منهما بما يُعَرّف به الآخرُ، وذلك لتقاربهما الدّلاليِّ الشّديد، قال ابن فارس في بيان معنى الطلب: "(الطّاءُ واللّامُ والباءُ) أصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على ابْتِغاءِ الشَّيْءِ"[1]، وكذلك في بيان معنى الابتغاء قيل: هو الطلب. يقال: "بَغَى الشَّيءَ يَبْغيه: طَلَبَه"[2]، لكن يُفَرّق بينَهما بأنّ الابتغاء هو نوع مخصوص مِنَ الطّلب، فهو الطّلب الذي بُذِلَ في سبيل تحصيله جهدٌ مميَّزٌ، وليس كذلك كلّ طلبٍ، "فالابتغاء افتعال مِنَ البغي. وقد غلب اختصاصُ هذه الكلمة للدّلالة على الاجتهاد في الطّلب، سواءٌ كان الطّلب محمودًا أو مذمومًا. ثمّ إنّه يُحْمَد بحمده، ويُذَمّ بذمّه؛ أي: إنّ الطّلب متى كان لشيء محمود فالابتغاء فيه محمود، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾ [الإسراء: 28]، ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 265]، ومنه أيضًا الآية التي معنا: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾، ومتى كان الطّلَبُ مذمومًا، كان الابتغاء فيه مذمومًا، كما في قوله سبحانه: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾ [التوبة: 48][3]، وعلى هذا يكون بينَ الطّلب والابتغاء عمومٌ وخصوصٌ مُطلَق، فكلُّ ابتغاءٍ طلبٌ، وليس كلُّ طلبٍ ابتغاء.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طلب).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بغو).
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (بغي).

السّر والإخفاء:

السّرُّ خِلافُ الإعلان، وهو يعني: إخفاء الشّيء. يعني: السّرُّ والإخفاء مِن جنسٍ واحد، لكنّ القرآن عادةً يَذْكُر السّرَّ مُقابَلًا بالإعلان، ومنه قوله: أي: يُخرجون صدقاتِهم في السّرّ والعلن حسبما يكون الخير، أي: إنّهم قد يتحدّثون بها، وقد لا يتحدّثون، على ما مضى في الإيضاح البلاغيّ، كما أنّ مِن خصائص السّرّ أيضًا أنّه يُستَعمل في الأعيان والمعاني، ولذلك يُطْلَق على الحديث المُنكَتم في النّفس[1]، وأكثرُ استعمالِه في القرآن في المعاني، بخلاف الإخفاء، فاستعمالُه في المحسوسات ملحوظٌ، كما تقول: "أخفيتُ الدِّرْهَمَ في الثَّوْب"[2]، ولا تقول: أسررتُه، وتقول: ساررتُه الخبرَ، لا خافيتُه. فمِثلُ هذا يقال له: سِرٌّ أو إسرار، ولا يقال له: خَفاء أو إخفاء، ومِن هذا الضّرب قولُه تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ﴾ [التوبة: 78]، وقولُه: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ﴾ [الملك: 13]، والإخفاء وإن كان هو والسّر مِن باب واحد، غيرَ أنَّ السِّرَّ أخصُّ منه؛ لأنّه يدلّ على الانكتام، وأمّا الخفاء فهو أقلّ مِنَ السّرّ دلالةً، ويُعَبِّرُ عن هذا الفرق قولُه تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾ [طه: 7]، فلمّا كان الخفيّ أقلَّ معنًى مِنَ السّرّ، قارن السّرّ في المقايسة، بما هو أرقى، فكان الأرقى هو (الأخفى)، وليس الخفيّ. وقد لخّصَ الكَفَويُّ الفرقَ بينَهما بقوله: "السِّرُّ: هوَ ما يُكْتَم؛ كالسّريرة والجِماع والذِّكر والنِّكاح والإفصاح بِهِ، والزِّنا ... ، وما يُسِرُّه المَرْءُ في نَفسه مِن الْأُمور الَّتي عزم عليها هو السِّرّ، وأمّا الْإِخْفاء، فَهوَ الَّذي لم يبلغْ حَدّ العزيمة[3].

السّرُّ يقوم بالإرادة، والخفاء بالعادة، وكلّ إعلان ظهور، وليس كلّ ظهور إعلانًا

(1) الرّاغب المفردات: (سرر).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 287.
(3) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 514.

العلانية والظّهور:

الظُّهور يكون بِقصد وبِغير قصدٍ، تَقول: استتر فلانٌ ثمَّ ظهر، ويدلّ هَذا على قصدٍ للظّهور، ويُقال: ظهرَ أمرُ فلانٍ، وإن لم يقْصد لذَلِك، فَأمّا قَوْلُه تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الرّوم: 41]، فَمَعْنَى ذَلِك: الْحُدوث، وكذلكَ قَوْلك: ظَهرت في وجهه حمرَةٌ، أي: حدثت، ولم يَعْنِ أنَّها كانَت فيهِ فظهرت[1]. ويأتي (ظهر) في القرآن مقابلًا لـ (بطن)، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: 151]، وقولِه: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ [الأنعام: 120].

الظُّهور بقصدٍ وبغير قصدٍ في الأعيان والمعاني، الإعلانُ بقصد وأكثرُه في المعاني

وأمّا العلانيةُ، فهي ضِدّ الإسرار، وتأتي مقابلةً لها في القرآن كما مضى ذكرُه، وهو يدلُّ "على إظْهارِ الشَّيْءِ"[2]، أي: بقصد، كما أنَّ أكثره يكون في المعاني دون الأعيان[3]، كما في قوله تعالى: ﴿أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩﴾ [نوح: 9]. وعلى هذا: فالفرق بينهما، أنَّ الظُّهور يكون بقصدٍ وبغير قصدٍ، والإعلانُ يكون بقصد، كما أنَّ الظُّهور يكون في الأعيان والمعاني، والإعلانُ يكون أكثرُه في المعاني.

متشابه النّظم بين آية [الرّعد: 22]، و[القصص: 54]:

قوله تعالى: ﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾، تشابهت هذه الآية مع قوله تعالى من سورة القصص: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٥٤﴾ [القصص: 54]. والنّاظر في هاتين الآيتين يجد اختلافًا بينهما مع وجود التّشابه، وذلك مِن ناحية التّقديم والتّأخير، والتّعبير عنَ الإنفاق بالماضي في سورة الرّعد، وبالمضارع في سورة القصص،

الآيتان تتشابهان، مع اختلاف في التقديم والتأخير، والذّكر والحذف

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 287.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علن).
(3) الرّاغب، المفردات: (علن).

ومِن ناحية الذِّكْر والحَذف، حيثُ ذُكِر ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ في سورة الرّعد، ولم تُذْكَر في سورة القصص.

أمّا عن سرّ التقديم والتأخير بين الآيتين؛ فالنّاظرُ في موضع القصص يجد أنّ السّياق فيها أكثرُ تعلُّقًا بالمستقبل، وكان دَرءُ الحسنة والسّيّئة أكثرَ تعلّقًا بالصّبر، لذلك ناسبه التّقديم، بخلاف سورة الرّعد؛ فالأمر مبني فيها على ترتيب الأوصاف دون النّظر إلى تعلّقها بالزّمن.

وأمّا عن سِرّ التّعبير بالماضي في قوله: ﴿وَأَنفَقُواْ﴾ في سورة الرّعد، فجاء موافقًا لسياق الآية، حيث بُنيَت على التّعبير بالماضي في قوله: ﴿صَبَرُواْ﴾ و﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ومِنَ المعلوم أنَّ الإنفاق أكثرُ تعلّقًا بإقامة الصّلاة؛ لذلك جاء التّعبير ماضيًا، مِن باب التّناسق مع سياق الآية، بخلاف موضع القصص فهو مبنيٌّ على المستقبل، بدليل قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ [القصص: 54]؛ فالتّعبير هنا يُشير إلى المستقبل، لذلك جاء بالمضارع من قوله: ﴿يُنفِقُونَ﴾ [القصص: 54].

وأمّا عن ذِكْره لقوله: ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ في سورة الرّعد دونَ القصص؛ فذلك لأنّ سورة الرّعد ذَكَرت صفةَ الإخلاص في أعمالهم بقوله: ﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾، والإخلاصُ يقتضي أن يكون الإنفاق سِرًّا كالإنفاق علانية، بخلاف موضع سورة القصص، فَخَلا منه الحديثُ عن ذِكْر هذه الصّفة صراحةً؛ لأنّها سَرت في سياق الآيات قبلَها، بدليل قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [القصص: 54].

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 24 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-21-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 24 : المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-21-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1718375 بتاريخ 2024/02/19م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»